الثوابت الدينية والوطنية
في السياق التاريخي للمملكة المغربية

الدكتور: كمال جعافري
حاصل على دكتوراه القانون العام
جامعة عبد المالك السعدي طنجة
الأستاذ: محمد اليوبي
حاصل على ماستر الدبلوماسية الدينية، كلية الشريعة،
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس
المغرب

الملخص

تهدف هذه المقالة إلى تسليط الضوء على محطات مشرقة من تاريخ المملكة المغربية، وذلك من خلال دراسة السياق التاريخي للثوابت الدينية والوطنية بالمملكة المغربية، بحيث يعد من المواضيع التي تفرض راهنيتها وتموقعها موضوعا مهما يستأثر بالدراسة خصوصا فيما يتعلق بالإرث التاريخي للمملكة المغربية؛ وقد اعتمدنا في هذا البحث على المنهج التاريخي من خلال رصد مختلف المحطات التاريخية لتبني المملكة المغربية لهذه الثوابت.

كلمات مفتاحية: المملكة المغربية، الثوابت الدينية، الثوابت الوطنية، التاريخ.

Abstract

The present article sheds light on different thriving periods in the history of the The kingdom of Morocco through studying the historical context of its national and religious fundamentals. This is because it is considered one of the topics that has gained urgency due to its current significance and academic position as a topic that captures scholarly interest especially in matters related to the historical heritage of the The kingdom of Morocco. In this study, the historical approach is opted for in capturing the different historical stages in which the kingdom adopted its national and historical fundamentals.

Keywords: The kingdom of Morocco; religious fundamentals; national fundamentals; history.

مقدمة:

أسهمت العقيدة الأشعرية والمذهب المالكي والتصوف السني وإمارة المؤمنين في خلق انسجام مذهبي وعقدي في المغرب جنبه كثيرا من الفتن التي كانت تقع في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي بسبب الخلافات العقدية، وبرغم بروز اتجاهات عقدية غير أشعرية عند بعض علماء المغرب بعد القرن السادس الهجري؛ فإن التعبير عن الخلاف كان محصورا في السجال العلمي..

كما تبنى المغرب ثوابت وطنية بنص الدستور الذي يعتبر أسمى قانون في المملكة المغربية، فقد نص في تصدير دستور 2011 على أن المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيادة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية – الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية. كما أن الهوية المغربية تتميز بتبوئ الدين الإسلامي مكانة الصدارة فيها، وذلك في ظل تشبث الشعب المغربي بقيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار، والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية جمعاء.1

تستند الأمة في حياتها العامة على ثوابت جامعة، تتمثل في الدين الإسلامي السمح، والوحدة الوطنية متعددة الروافد، والملكية الدستورية، والاختيار الديمقراطي.2 فالإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية.3

تبعا لذلك يمكن طرح الإشكالية التالية: ما هو السياق التاريخي لتبني المملكة المغربية للثوابت الدينية والوطنية؟.

سنحاول التطرق للثوابت الدينية والوطنية في السياق التاريخي للمملكة المغربية من خلال مطلبين: المطلب الأول سنخصصه للحديث عن الثوابت الدينية في السياق التاريخي للمملكة المغربية، الذي يتضمن بدوره فقرتين: تهتم الفقرة الأولى بتاريخ العقيدة الأشعرية والفقه المالكي بالمملكة المغربية، في حين تهتم الفقرة الثانية بالتصوف السني وإمارة المؤمنين في السياق التاريخي للمملكة المغربية.

أما المطلب الثاني فخصصناه للحديث عن الثوابت الوطنية في السياق التاريخي للمملكة المغربية من خلال فقرتين: الفقرة الأولى تتحدث عن الدين الإسلامي والوحدة الترابية في السياق التاريخي للمملكة المغربية، والفقرة الثانية تتناول الملكية الدستورية والاختيار الديمقراطي في السياق التاريخي للمملكة المغربية.

المطلب الأول: الثوابت الدينية في السياق التاريخي للمملكة المغربية

تبنت المملكة المغربية ثوابت دينية متمثلة في العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي السني، والتصوف السني على طريقة الجنيد، وإمارة المؤمنين كإرث ديني وحضاري ممتد عبر تاريخ الأمة المغربية.

الفقرة الأولى: تاريخ العقيدة الأشعرية والفقه المالكي بالمملكة المغربية

أولا: تاريخ العقيدة الأشعرية بالمملكة المغربية وأصولها

لقد ظل المغرب الإسلامي على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ولا صرف لها عن مدلولها اللغوي مع التنزيه للخالق عز وجل وذاته العلية عن أن تشبه الذوات وتتصف بصفات المخلوقين، وكذا القول في الوجه واليدين والعين والنزول والمجيء والضحك وغيرها مما ورد إطلاقه على الله سبحانه وتعالى في الكتاب والسنة، فإنهم يمرونه على ظاهره ولا يؤولونه بالذات والقدرة فرارا من الافتنات على الشارع الذي عبر بذلك، ولكنهم يعتقدون التنزيه ومخالفته تعالى للحوادث.4

إن التزام أهل الغرب الإسلامي، وخصوصا أهل المغرب، بالمذهب الأشعري له أكثر من دلالة في سياقه الحضاري والتاريخي، ذلك أن العقيدة الأشعرية في تراث هذه البقعة الجغرافية كانت مقوما من مقوماته الفكرية، وقد عبر عبد الواحد بن عاشر (ت 1040هـ) عن هذا المعنى في منظومته المرشد المعين بقوله:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك5

يشكل الجانب العقدي للأمة المغربية، عبر تاريخها الطويل، ثابتا من ثوابت الدولة المغربية، ومعلما من معالم هويتها الثقافية، ولما كانت العقيدة الأشعرية قد ارتبطت بتاريخ المغرب ارتباطا قويا وطويلا، امتد ما يقارب عشرة قرون، فإن الاهتمام بتاريخ حضورها وتطورها في هذا البلد يشكل مطلبا علميا جديرا بالاهتمام والمتابعة، وهناك جوانب تميز بها حضور علم الكلام الأشعري في الغرب الإسلامي، من ذلك أنه نظرا لارتباط المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي في بداياته الأولى بالمشروع الإصلاحي السياسي والديني، فقد وقعت في هذا المذهب انتقائية واضحة حكمت وجوده واستمراره في هذه البقعة من العالم الإسلامي. إن الحضور الطويل للعقيدة الأشعرية في هذه المنطقة باعتبارها العقيدة الرسمية، جعل مضامينها تؤثر بكيفية أو بأخرى في مجموع مناحي الحياة الشفوية والسياسية، فقد تشربت هذه العقيدة وتمثلتها من خلال الأدعية، والحكم، والأمثال السائدة، فعكست جميعها فكرة القضاء والقدر، والقدرة المطلقة للذات الإلهية، وإمكانية رؤية الله، وأمور أخرى.6

إن تتبعنا لمختلف الأطوار التاريخية التي مر بها هذا الفكر في هذه المنطقة بالذات سيكشف لنا الآليات والميكانيزمات التي كانت تحركه، وأوجه تميزه واستقلاليته عن المدرسة الأشعرية في المشرق، مما يكشف طبيعة العلاقة الجدلية القائمة بين هذا الفكر وخصوصية الواقع المغربي المميز، وملابساته التاريخية والاجتماعية والسياسية التي عرفها، سيما وأن الفكر الأشعري المغربي قد عرف تطورا نوعيا، سواء من حيث تطوره التاريخي، أو من حيث مضامينه وثوابته، أو منهجيته. فقد كان مجموعة من كبار المفكرين بالأندلس والمغرب، وتونس يتجهون في بداية حياتهم العلمية إلى المشرق فيتلقون دراستهم الفقهية والعقدية على كبار الأشاعرة هناك، وعند عودتهم إلى بلدانهم يعودون مقتنعين أشد ما يكون الاقتناع بهذا المذهب وبضرورة نشره وتعميمه بين الناس، إذ تبنت الدولة الموحدية المذهب الأشعري، وسعت إلى محاربة الاتجاه السلفي العقدي، وترسيم المذهب الأشعري كمذهب رسمي للدولة المغربية.7

ثانيا: أصالة الفقه المالكي في السياق التاريخي للمملكة المغربية وامتداده

إن مذهب مالك قد عم وانتشر في بلاد كثيرة منذ نشأته الأولى، وقد استطاع رجاله أن يفرضوه في البيئات المختلفة، وهكذا تعددت فروعه ومدارسه، فظهر فرع المدينة، وفرع مصر وفروع الأندلس والمغرب الأقصى غيرها...، وعلى الرغم من بعد المغرب نسبيا – عن المدينة موطن الإمام مالك، فقد عرف المغاربة المذهب منذ بزوغه، لقد شد كثير من أهل المغرب الرحلة إلى المدينة ليسمعوا من إمام دار الهجرة الفتاوى والفقه على السواء، فكان لعلي بن زياد التونسي رواية للموطأ، وكان ليحيى بن يحيى الليثي المصمودي رواية لعلها أشهر الروايات على الإطلاق، وقد ظل المغاربة أوفياء لمذهب الإمام مالك، لا يرضون بغيره بديلا، فتبناه العلماء والعامة، وحماه الأمراء والملوك والخلفاء، فلم تصمد أي دعوة لمذهب آخر فقهيا كان أو عقديا، فاندثرت كثير من المذاهب أمام مد مذهب أهل المدينة الذي كان من الناحية العقدية خطا دفاعيا أمام كل التيارات الهدامة.8

ومنذ استقرار المذهب المالكي في الغرب الإسلامي أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين حافظ عليه أهل هذه الأصقاع وتبنوه، سواء في ذلك علماؤهم وأمراؤهم، وهذا الاعتناء هو الذي أسهم في تقويه وتطوره وعطائه الغزير، ولقد مر بمراحل وأطوار متعددة، فكان يتراوح بين الاجتهاد والتقليد والانطلاق والجمود، والانفتاح والتقوقع، ارتباطا بمدى خدمة العلماء له واجتهادهم في تأهيله لمواكبة ما يستجد من أوضاع دون تحجر أو جمود كما كان منهج الإمام وتلاميذه، إذ كان مالك – رحمه الله – إماما مجتهدا، يقول القول ثم يرجع عنه إذا رأى

دليلا أقوى، وكان كذلك كبار تلاميذه كابن القاسم و ابن وهب وأشهب وابن نافع.. وكانوا يوافقون الإمام غالبا ويخالفونه أحيانا إذا وقفوا على دليل أقوى من دليله.. وأجرى على أصوله....9

فالمذهب المالكي لا يعوّل على استخدام الرأي أو الجدل بقدر ما يعتمد على النص والنقل، وعلى الأثر والرواية، ومن ثم فهو مذهب ملائم لطبيعة المغاربة، لأنه عملي أكثر منه نظري، ويستند على الواقع، ويأخذ بالعرف والعادة، وأهل المغرب عمومًا متمسكون بالسنة والجماعة وتجنب البدع.10

لعل أبرز الدواعي والأسباب التي جعلت عامة أسلافنا العلماء بالغرب الإسلامي يتمسكون بمذهب الإمام مالك ويعضون عليه بالنواجذ، هو ما عرف به هذا الإمام من سلامة مسلكه في أمور العقائد والالتزام بما أثر عن السلف من أصول الدين مضمونا ومنهجا. فالإمام مالك بالإضافة إلى اشتهاره بين المحدثين بشدة تحريه في رواية الحديث وانتقاء رجاله، والتوقف في الفتوى تورعا واحتياطا وحفاظا على سلامة فروع الشريعة وضبطا لأحكامها، والاقتصار من ذلك على ما تناوله الصحابة والتابعون وجماعة أهل الحديث والسنة من سلف هذه الأمة، دون مجاوزة قولهم، أو الخوض فيما لم يخوضوا فيه، وكان بعد خوض المتكلمين فيما لم يخض فيه السلف ابتداعا في الدين، واتباعا لغير سبيل المؤمنين.11

الفقرة الثانية: التصوف السني وإمارة المؤمنين في السياق التاريخي للمملكة المغربية

أولا: تاريخ التصوف السني بالمملكة المغربية وأصوله

لم يسبق أن دار جدال ونقاش حول موضوع بقدر ما دار حول التصوف والطرق الصوفية، ففي البداية وقع خلاف كبير حول التصوف كلفظ وأصله ومصدره واشتقاقه، وقد حاول المهتمون بالتصوف من العرب والمستشرقين الوصول إلى المعنى الأصلي له، فقيل إنه اشتقاق من الصوف، وقيل إنه من الصفاء، والبعض اعتبره نسبة الى أهل الصفة، والبعض الآخر قال إنه نسبة إلى الصف الأول، أما أبو القاسم القشيري قال أن اسم التصوف لم يشهد له من حيث العربية قياس أو اشتقاق والأظهر فيه أنه لقب.12

إن التصوف المغربي صورة حية ناطقة للتصوف الإسلامي عامة، ولما تركته نظريات التصوف المغربية من آثار عميقة في الفكر الصوفي الشرقي، وتاريخ الحركة الصوفية لا يشمل الجانب الثقافي والروحي فحسب بل يتجاوزه إلى الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وكذلك كان للتصوف المغربي أثر كبير في توجيه وتغيير كافة أوجه الحياة.

وعلى الرغم من ظهور التصوف في القرن الثاني الهجري وانتشاره في الشرق العربي إلا أن المجتمع المغربي كان بمعزل عنه ولم يعرفه أهله كما عرفه إخوانهم المشارقة حتى أوائل القرن الخامس الهجري أو قبله بقليل، وذلك في عهد المرابطين، وقد نشأ التصوف في المغرب مبنيا على الزهد والتقشف والنسك وحمل النفس على المجاهدة في الطاعة والوقوف مع ظاهر الشرع دون تغلغل في علوم المكاشفات والحقائق، لذلك لم يحتدم في المغرب في ذلك العصر صراع بين المتفقهه والمتصوفة كما حدث في الشرق من قبل، لبعد التصوف المغربي عما يخالف ظاهر الشريعة من منظور الفقهاء، وفي منتصف القرن الخامس الهجري دخلت بعض كتب التصوف للمغرب وفوجيء العلماء في أواخر هذا القرن بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ووجدوا فيه الكثير مما لم يألفوه فثاروا عليه وأمروا بإحراقه وتحريم قراءته، وكان هذا الحادث من أهم عوامل تدهور واضطراب وانحلال دولة المرابطين وانتشر الظلم والفجور ونشبت حروب وفتن ومعارك أهلية لم تهدأ إلا باضمحلال دولة المرابطين، وسقوطها على يد المهدي بن تومرت منشيء دولة الموحدين. إلا أن هذا لم يمنع وجود بعض من شغف بقراءة هذا الكتاب مثل أبو الفضل النحوي الذي قال "وددت أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب".13

وقسم علال الفاسي زمن التصوف في المغرب إلى أربعة عصور العصر الأول يتمثل في عهد أبي مدين والعصر الثاني من عند أبي مدين وعبد السلام بن مشيش في أواخر القرن الخامس والسادس إلى زمن الشاذلي في القرن السابع الهجرى، والعصر الثالث من زمن الشاذلي إلى عهد الجزولي، من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجرى والعصر الرابع والأخير من عهد الجزولي إلى يومنا هذا من القرن التاسع إلى الرابع عشر الهجري.14

التصوف الجنيدي هو خلاصة علم السلوك والأخلاق عند السلف الصالح فالمغاربة انخرطوا فيه علما وعملا، حيث إن الناظر في سلوكهم التعبدي والأخلاقي عبر التاريخ يجد الأثر التربوي الصوفي متجليا من خصال حميدة مطردة كعمارة المساجد، والكرم وحسن الضيافة، والتعلق بالقرآن وبذكر الله، والتوكل على الله، والصبر عند المصيبة، وبر الوالدين، والتسامح والعفو والصفح... إلى غير ذلك من الخصال التي قررها كبار القوم في وصاياهم التربوية.15

ثانيا: إمارة المؤمنين إرث ديني عبر تاريخ المملكة المغربية

لقد أجمعت المصادر الشرعية، الأصول والفروع، وأكدت المراجع التاريخية، أن مؤسسة إمارة المؤمنين إرث ديني حضاري اختص به المسلمون، كما أنها إحدى الدعائم الأساسية التي تقوم عليها الدولة المغربية الأصيلة، وتستمد مشروعيتها من اختيارات الأمة التي ارتضت الإسلام دينا للدولة منذ نشوئها. وفي ظل هذه المؤسسة الشرعية، عاش المغرب المسلم منذ القرن الثاني الهجري، من دولة الأدارسة التي تعتبر أول دولة إسلامية متكاملة الأركان تأسست بأقصى غرب شمال إفريقيا، إلى دولة العلويين الشريفة، في أمن وأمان، وسلم وسلام، محفوظا في دينه وعقيدته وشريعته وأخلاقه، محروسا ومصونا في أنفسه وأعراضه وأمواله وحضارته، وبهذا استقام أمره، وامتدت علاقاته وارتباطاته ونفوذه في ظل هذه المؤسسة الدينية الجامعة الموحدة حتى مع مواليه من البلدان الإفريقية المجاورة.16

كما شكلت هذه المؤسسة المقدسة – إمارة المؤمنين – صمام أمان للمجتمع المغربي، باعتبارها مؤسسة محايدة، غير متحزبة ولا متحيزة، وبقي المغرب البلد الوحيد المحافظ عليها، وعلى رسومها وترتيباتها المعتمدة، ومعالمها التاريخية إلى اليوم، وهي مؤسسة تقوم بالأساس على نظام البيعة الشرعية.

عرف الإمام الماوردي الإمامة: موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع وإن شد عنهم الأصم17، فإذا ثبت وجوب الإمامة ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط فرضها على الكفاية، وإن لم يقم بها أحد خرج من الناس فريقان: أحدهما أهل الاختيار حتى يختاروا إماما للأمة، والثاني أهل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة.18

كما عرفها إمام الحرمين الجويني بقوله: الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة، في مهمات الدين والدنيا، مهمتها حفظ الحوزة، ورعاية الرعية، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف، وكف الخيف والحيف، والانتصاف للمظلومين من الظالمين، واستيفاء الحقوق من الممتنعين، وإيفاؤها على المستحقين.19

إن الدولة العلوية سنية الطابع، مالكية المذهب، أشعرية العقيدة منذ البداية، لذلك فلقب "إمارة المؤمنين" الذي تلقب به ملوكها يجب أن يندرج في هذا الإطار، علما بأنه لم يشرع في استعماله عمليا إلا مع صعود المولى الرشيد حكم المغرب، وخصوصا بعد دخوله مدينة فاس، واستقبال البيعة الرسمية والشعبية بها، سنة 1076 هـ وربما لهذا السبب نجد المصادر التاريخية (ككتابات الإفراني والناصري وغيرها) تكتفي بلقب "الأمير" عندما تتحدث عن فترة نشوء الدولة زمن الشريف علي وابنه محمد، لكنها ابتداء من التاريخ أعلاه تبدأ في نعت الذين تعاقبوا على حكم المغرب بلقب "إمارة المؤمنين"، وهو اللقب الذي استمر توارثه واستعماله حتى تمت دسترته وتقنينه مع دستور 1962.20

المطلب الثاني: الثوابت الوطنية في السياق التاريخي للمملكة المغربية

تبنت المملكة المغربية ثوابت وطنية تتجلى في الدين الإسلامي كدين رسمي للمملكة المغربية، والوحدة الترابية كقضية أولى من أجل استكمال الوحدة الترابية، والملكية الدستورية التي نص عليها دستور 2011، والاختيار الديمقراطي.

الفقرة الأولى: الدين الإسلامي والوحدة الترابية في السياق التاريخي للمملكة المغربية

أولا: الفتوحات الإسلامية وانتشار الدين الإسلامي بالمملكة المغربية

لقد بدأ الفتح الإسلامي لإفريقيا الشمالية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما سار "عمرو بن العاص" رضي الله عنه بجيش إسلامي إلى مصر، واستطاع أن يفتحها بعد معارك حربية انتصر فيها.21 وقد تبعت بعد ذلك الحملات الإسلامية لفتح شمال إفريقيا التي مرت بعدد من المراحل، وقادت الجيوش الإسلامية عدد من القادة بينهم "عقبة بن نافع الفهري" الذي يعتبر بحق هو الفاتح لبلاد المغرب، لأنه وصل بفتوحه إلى المحيط ودخل فيه حتى وصل الماء إلى بطن فرسه وقال قولته الشهيرة: "يا رب لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد إلى مسلك ذي القرنين مدافعا عن دينك مقاتلا من كفر بك".22

ولقد قام هذا القائد خلال الفترتين اللتين قضاهما في ولاية إفريقية (تونس) الفترة الأولى امتدت ما بين (50-55هـ) والفترة الثانية ما بين (62-64هـ)، بحروب كثيرة ضد السكان المحليين، حيث دخل كثير منهم في الإسلام على يديه، وكان من أعماله بناء مدينة المسلمين يستقرون فيها، فاختط القيروان وأسكن فيها جنده وعسكره، واستقر المسلمون في المغرب بعدما كانوا يكتفون، والعودة إلى المدينة.23

وممن أسهم بنصيب وافر في الفتوحات الإسلامية في المغرب حسان بن النعمان الذي أرسله عبد الملك بن مروان لكي يكمل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وقد قام بعدة حملات عسكرية نجح من خلالها في القضاء على الزعيمة "الكاهنة داهية" في معركة وقعت سنة 86هـ، وقد اعتنقت قبائل الأمازيغ الإسلام بعد مقتل زعيمتهم.24

وآخر الولاة الفاتحين هو موسى بن نصير الذي ولاه الوليد بن عبد الملك سنة 86هـ، فقام بدور كبير في تثبيت نفوذ المسلمين في المغرب مستعينا بالأمازيغ الذين أسلموا وحسن إسلامهم، فأصبحوا من المساهمين في نشر الإسلام مثل طارق بن زياد الذي أوكل له موسى بن نصير قيادة الجيش الإسلامي، وأصبحت منطقة المغرب منطلق الفتوحات الإسلامية في الأندلس الذي فتحها قائد من الأمازيغ.25

قام الإسلام بعد استقراره بشمال إفريقيا بدور مساعد في التوحيد وإن كان دخوله للمغرب الكبير عسيرا من حيث حجم مقاومة الأمازيغ للفتح الإسلامي، وعلى الرغم من هذه المقاومة المستميتة، فقد اتسعت دائرة أَسْلَمَةِ شعوب شمال إفريقيا، من خلالها شكل المذهب المالكي الذي انتشر في وسط سكان المغرب الكبير، ليعد من الوسائل الهامة التي ساهمت في توحيد سكان المغرب الكبير من مشرقه إلى مغربه.26

تمكن المولى إدريس بن عبد الله المنتسب للبيت النبوي الشريف من الوصول إلى المغرب سنة 788م/172هـ، فبايعته قبيلة أوربة الأمازيغية بمدينة وليلي على الإمارة والجهاد وتسيير كافة شؤونهم الدينية والإدارية والقضائية، فقام بإنشاء الجيش وفتح مناطق جديدة، ونشر الإسلام بمناطق أخرى، مما مكنه من وضع الأسس الأولى كأول دولة إسلامية مركزية مستقلة بالمغرب الأقصى.27

وبعد وفاة المولى إدريس، بايع المغاربة المولى إدريس الثاني 803م، فعمل على توطيد دعائم الدولة وتوسيع حدودها، كما قام ببناء عدة مدن أهمها: فاس سنة 808م/192هـ، التي اتخذها عاصمة للدولة، كما عمل على تنظيم الإدارة والجيش، وتوحيد البلاد.

تميزت مدينة فاس بتصميم محكم ومنظم ضمت معالم عمرانية كالمساجد (الأشياخ – الأندلس –...)، فازدادت المدينة إشعاعا بفضل بناء جامع القرويين على يد فاطمة الفهرية سنة 859م/245هـ، فتوافد على المدينة العديد من العلماء والأطباء والفقهاء من كل الأقطار، فأصبحت فاس منارا للعلم والعلماء، وبذلك مركزا علميا ودينيا.28

لقد قامت الدولة العلوية على أساس الدين، وحكمت المغرب باسم الإسلام، استمرارا لما كان عليه الحال منذ إدريس الفاتح إلى المولى الشريف الذي اشتهر بين الناس بالفضيلة والدين والجهاد، قبل أن يعلن تأسيس دولته. إذ قام نظام الدولة على أساس العقيدة الإسلامية، وعلى مذهب أهل السنة، وصارت أمور الدولة وشؤونها على أساس الكتاب والسنة، حيث أسست المعاهد لتعليم الكتاب والسنة، وعمت المجالس الحديثية الأرجاء، وعينوا لها أوقاتا مخصوصة، واستجلبوا لها من الشرق مسانيد الأئمة الثلاثة، واشتغلوا بدراسة الحديث والتأليف فيه، كما اهتم العلويون بنشر كتب السنة وطبعها والعمل على إداعتها بين الناس، وفي إصدار مراسيم وظهائر تدعو المواطنين إلى التمسك بالسنة وتعاليمها ونبذ البدع والخرافات الخارجة عن الدين، وبعد تأسيس مطبعة فاس نشرت كتب الحديث (حواشي الشيخ التاودي ابن سودة، وابن زكري علي البخاري...) وغيرها من كتب الحديث.

وفي عهد الحسن الثاني تأسست دار الحديث الحسنية لتكون معهدا عاليا لتدريس السنة وعلومها، وتخرج أفواجا من العلماء، فأصبحت إحدى معالم بلدنا المغرب، وعلى نهج أسلافه الميامين وبصفته أميرا للمؤمنين اهتم جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده بالحقل الديني من خلال عدة مؤسسات تعنى بالشأن الديني نذكر منها: مؤسسة محمد السادس لنشر المصحف الشريف، ومؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، ومعهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات.

ثانيا: الوحدة الترابية قضية أولى بالمملكة المغربية

مباشرة بعد اعتراف فرنسا باستقلال المغرب سنة 1956م وقع على اتفاقية مماثلة مع إسبانيا بشأن المنطقة الشمالية تنص على إلغاء الحماية الإسبانية بها، وفي سنة 1957م ألغي الوضع الدولي الذي كانت عليه مدينة طنجة، كما تم استرجاع إقليم طرفاية في أبريل 1958م من يد الإسبان، وبعد مفاوضات صعبة بين المغرب وإسبانيا تم استرجاع منطقة سيدي افني سنة 1969م، ومنذ الاستقلال بذل المغرب مساعيه من أجل استرجاع الأقاليم الصحراوية، وبتمادي الحكومة الإسبانية في موقفها الرافض لأي تسوية أعلن المغفور له الحسن الثاني عن تنظيم المسيرة الخضراء التي انتهت باسترجاع إقليم الساقية الحمراء سنة 1975م، ووادي الذهب سنة 1979م بعد تخلي موريتانيا عن هذا الأخير.

إن مغربية الصحراء حقيقة ثابتة، لا نقاش فيها، بحكم التاريخ والشرعية، وبإرادة قوية لأبنائها، واعتراف دولي واسع، خصوصا في ظل الاعتراف الأمريكي بمغربية الصحراء المبني على مبادرة الحكم الذاتي، في إطار السيادة المغربية، وافتتاح أكثر من 24 دولة قنصلياتها في مدينتي العيون والداخلة، يؤكد الدعم الواسع الذي يحظى به الموقف المغربي، لا سيما في المحيط العربي والإفريقي، وهو أحسن جواب قانوني ودبلوماسي على الذين يدعون بأن الاعتراف بمغربية الصحراء ليس صريحا أو ملموسا. فالمغرب لا يتفاوض عن صحرائه، ومغربية الصحراء لم تكن يوما ولن تكون مطروحة فوق طاولة المفاوضات، إن قضية الصحراء هي جوهر الوحدة الوطنية للمملكة، وهي قضية كل المغاربة.29

الفقرة الثانية: الملكية الدستورية والاختيار الديمقراطي في السياق التاريخي للمملكة المغربية

أولا: الملكية الدستورية بالمملكة المغربية

نص دستور المملكة المغربية لسنة 1962 في مادته الأولى على اعتماد المغرب لمبدأ الملكية الدستورية، والديمقراطية الاجتماعية، وأن السيادة للملك يمارسها مباشرة عن طريق الاستفتاء وبشكل غير مباشر من قبل وسيط المؤسسات الدستورية، غير أن دستور 2011 انتهج مبدأ التشارك لإضفاء طابع من التواصل بين الملك وشعبه.

لقد أكد دستور 2011 على ترسيخ قيم الديمقراطية وإرساء دولة الحق والقانون، وذلك من خلال فصل السلط، فالملك هو رئيس الدولة، وممثلها الأسمى، ورمز وحدة الأمة، وضامن دوام الدولة واستمرارها، والحكم الأسمى بين مؤسساتها، يسهر على احترام الدستور، وحسن سير المؤسسات الدستورية، وعلى صيانة الاختيار الديمقراطي، وحقوق وحريات المواطنين والمواطنات والجماعات، وعلى احترام التعهدات الدولية للمملكة المغربية.30

ثانيا: الاختيار الديمقراطي وترسيخ دولة الحق والقانون بالمملكة المغربية

نص دستور المملكة المغربية لسنة 2011 على اعتبار الاختيار الديمقراطي من أهم المبادئ الأساسية التي تمثل هوية الأمة المغربية، والذي يستمد مشروعيته من الدين الإسلامي، والوحدة الوطنية، والملكية الدستورية؛ لهذا يعد الاختيار الديمقراطي مرحلة مهمة من أجل ترسيخ دولة الحق والقانون، وحفظ الحقوق والحريات داخل المجتمع المغربي.

لقد أصل الدستور المغربي للديمقراطية من خلال عدة نصوص دستورية جوهرها اعتبار الخيار الديمقراطي أحد ثوابت الأمة المغربية، لكنه ترك الأمر للفاعلين السياسيين لتنزيلها وتنفيذها من خلال تنصيصه على قوانين تنظيمية، وعلى سلطات البرلمان ورئيس الحكومة، ما يجعل من الديمقراطية إفرازا للممارسة السياسية وليس نصوصا فوقية فقط.

خاتمة

اهتمت الثوابت الدينية بالمملكة المغربية المتمثلة في العقيدة الأشعرية والفقه والمالكي والتصوف السني وإمارة المؤمنين عبر تاريخها بخلق انسجام مذهبي وعقدي في المغرب جنبه الكثير من الفتن التي كانت تعرفها مناطق مختلفة من بلدان العالم الإسلامي، فشكلت هذه الثوابت الحصن الحصين للأمة المغربية من الفتن والخلافات العقدية.

تتجلى الثوابت الوطنية التي تبنتها المملكة المغربية في الدين الإسلامي كدين رسمي للمملكة المغربية، والوحدة الترابية للمملكة المغربية كقضية أولى من أجل استكمال الوحدة الترابية، والملكية الدستورية، والاختيار الديمقراطي.

إن الثوابت الوطنية تتكامل وتتداخل وتترابط مع الثوابت الدينية للمملكة المغربية من أجل ضمان وحدة الأمة المغربية واستقرارها واستمراريتها على أسس الوسطية والاعتدال، ونبذ كل أشكال التطرف والتفرقة.

الهوامش:

[1] – تصدير دستور المملكة المغربية 2011.

[2] – الفصل 1 من دستور المملكة المغربية 2011.

[3] – الفصل 3 من دستور المملكة المغربية 2011.

[4] – إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب: دخولها، رجالها، تطورها وموقف الناس منها، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة: الأولى، ص:5.

[5] – لماذا اعتنق المغاربة العقيدة الأشعرية؟، https://www.habous.gov.ma/2012-01-26-16-14-59/1258-لماذا-اعتنق-المغاربة-العقيدة-الأشعرية؟.html ، بتاريخ: 10-09-2024، الساعة: 12:23.

[6] – العقيدة الأشعرية في المغرب، www.habous.gov.ma/2012-01-26-16-14-59/1259-العقيدة-الأشعرية-في-المغرب.html ، بتاريخ: 10-09-2024، الساعة: 12:29.

[7] – لماذا اعتنق المغاربة العقيدة الأشعرية؟، https://www.habous.gov.ma/2012-01-26-16-14-59/1258-لماذا-اعتنق-المغاربة-العقيدة-الأشعرية؟.html ، بتاريخ: 11-09-2024، الساعة: 18:25.

8 – محمد بن حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية_المملكة المغربية، مطبعة فضالة، طبعة: 2000، ص: 3-4.

[9] – محمد بن حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، مرجع سابق، ص: 8.

[10] – إبراهيم القادري بوتشيش، نشأة المدرسة المالكية بالمغرب والأندلس.

[11] – محمد بن حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، مرجع سابق، ص: 91.

[12] – منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، منشأ المعارف، الاسكندرية، بدون سنة نشر، ص:115.

[13] – منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، مرجع سابق، ص: 125-126.

[14] – منال عبد المنعم جاد الله، التصوف في مصر والمغرب، مرجع سابق، ص: 126.

[15] – عبد الرزاق وورقية، مقالات حول الدبلوماسية الدينية المغربية، كلية الشريعة_فاس، غير منشورة، سلمت لطلبة الفوج الثالث ماستر الدبلوماسية الدينية، كلية الشريعة فاس، 2023.

[16] – موقع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، https://www.fm6oa.org/مؤسسة-إمارة-المؤمنين-في-عمقها-التاريخ/، بتاريخ: 26/08/2024، الساعة: 16:26.

[17] – أبي الحسن علي بن محمد ابن حبيب البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، 2006، ص: 15.

[18] – أبي الحسن علي بن محمد ابن حبيب البصري الماوردي، الأحكام السلطانية، مرجع سابق، ص: 17.

[19] – عبد الملك بن عبد الله الجويني أبو المعالي إمام الحرمين، الغياثي غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق، عبد العظيم الديب، الطبعة: الثانية، 1401هـ، ص: 22.

[20] – عبد العزيز غوردو، إمارة المؤمنين "التاريخ السياسي والثقافة الدستورية"، دورية كان التاريخية، العدد: 14، 2011، ص: 136.

[21] – كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة السابعة، بيروت، 1977، ص: 99-102.

[22] – ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: كولان، ليفي بروفنسال، الطبعة: الثانية، دار الثقافة، بيروت، 1980، الجزء الأول، ص: 27.

[23] – ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، مرجع سابق، ص: 20-21.

[24] – أحمد علي صالح، سلسلة تاريخ العرب والإسلام: الفتوحات الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، لبنان، ص: 343.

[25] – ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، مرجع سابق، ص: 42-43.

[26] – ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي: من الفتح الإسلامي إلى اليوم، ترجمة عن الفرنسية عبد الرحمان البدوي، الطبعة: الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص: 107-134 بتصرف.

[27] – علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الطبعة: الثانية، المطبعة الملكية الرباط، 1999، ص: 23 بتصرف.

[28] – علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، مرجع سابق، ص: 37-69 بتصرف.

[29] – مقتطف من الخطاب السامي لجلالة الملك محمد السادس نصره الله إلى الأمة بمناسبة الذكرى 46 للمسيرة الخضراء المظفرة، 06 نونبر 2021.

[30] – الفصل 42 من دستور 2011.